اتجاهات البحث الأسلوبي 2

3-الأسلوبية الإحصائيّــة

سعت الأسلوبيــة منذ بداياتها مع شارل بالي إلى الموضوعية وقد تعزز هذا المسعى بظهور اتجاه أسلوبي يقوم على مبدأ علمي رياضي في دراسة الظواهر الأدبية وهو الأسلوبية الإحصائيّــة .

إن الإحصاء الرياضي في الدراسة الأسلوبية هو محاولة لوصف الأسلوب وصفا موضوعيا ، وقد اعتمد هذا التوجــه فول فوكس Fucks يقول: « نقيم الأسلوب كما يأتي في نطاق المجال الرياضي بتحديده من خلال مجموع المعطيات التي يمكن حصرها كميا في التركيب الشكلي للنص».

أي أن الأسلوبية الإحصائية تقوم على الكم أي القيم العدديــة ، إذ « تجتهد لتحقيق هذا الهدف بتعداد العناصر المعجمية في النص أو بالنظر إلى متوسط طول الكلمات والجمل أو العلاقات بينهما أو العلاقات بين النعوت والأسماء والأفعال ، ثم مقارنة هذه العلاقات الكمية مع مثيلاتها في نصوص أخرى » ، فالوحدات اللغوية تخضع لعمليات حسابيــة ، فيتم تمثيــل كل نوع منها تمثيلا عدديا ثم مقارنتــها مع بعضــها أو مقارنتــها مع نصوص أخرى وبيان دلالة تفوق نوع ما عدديا على نوع آخر.

فمثلا كتاب " الأيام" لطه حسين يتبين من خلال دراسته دراسة أسلوبية إحصائية أن الجملة الفعلية فيه تمثل نسبة 39 % في حين أن نسبة هذه الجمل في كتاب "حياة قلم" للعقــاد لا تتعدى 18 % ، ومعنى ذلك أن كتاب "الأيام" أقرب إلى الأسلوب الانفعالي والحركي من كتاب "حياة قلم" الذي يميل الأسلوب فيه إلى الطابع الذهني العقلاني.

يهدف التحليل الأسلوبي الإحصائي إلى حساب العناصر اللغوية البارزة والسمات الأسلوبية الأكثر إثارة و« يعتبر الكم في حد ذاته عاملا من عوامل البروز والظهور، فالمواد التي تتكاثف بشكل غير عادي بالنسبة لمستعمل اللغة كفيلة بإثارة الانتباه بكميتها نفسها»، وهو ما يساعد في الكشف عن حقائق مهمة متعلقة بالنص وصاحبه.

يشير برند شبلنر Bernd Spillner إلى أهمية الدراسات الإحصائية بقوله « ومن أهم المميزات التي تختص بها الدراسات التي تعتمد على الكمية استخدام الحاسب الآلي في التحليل الأسلوبي ، ولقد حققت المناهج الإحصائية الرياضية في التحليل الأسلوبي نجاحا كبيرا في مجال التحقق من شخصية المؤلف ، وهذا يعني بيان صاحب العمل الأدبي في النصوص مجهولة المؤلف ، كذلك النصوص التي يثار خلاف حول مؤلفها».

يعلق نور الدين السد على رأي شبلنر، فيرى أن عملية التحليل الأسلوبي التي يراد بها تحديد شخصية المؤلف عملية غير مضمونة خاصة إذا كانت النصوص متشابهة ومؤلفوها كثر، وينتسبون إلى حركة أدبية واحدة ، فيشتركون بذلك في نفس الملامح الأسلوبية ، غير أن هذه العملية قد تساعد الباحث على تصنيف مجموعة من النصوص ضمن مدرسة أدبية معينة وفقا لغلبة عناصر أسلوبية وكثافتها في هذه النصوص الأدبية.

فالأسلوبية الإحصائية تسهم في تحديد القرابة الأدبية وتعمل على تخليص الأسلوب من الحدس الخالص باعتمادها حدسا منهجيا مُوجَّها، غير أن الذي أخذ عليها هو عجزها عن وصف الطابع المنفرد والخاص للأعمال الأدبية بشكل دقيق، وهو ما تنبه له محمد الهادي الطرابلسي الذي حرص على المزاوجة بين الجانب العلمي والجانب الذوقي في الدراسة الأسلوبية ، يقول : « إن الدراسة الأسلوبية التي تعنى بمعالجة الكلام المكتوب عملية نقدية تتركز على الظاهرة اللغوية مادة الكلام الأساسية ، وتبحث في أسس الجمال المحتمل قيام الكلام عليه ، لذلك يشترط في المُقدِم عليها ثقافة مزدوجة ، لغوية أولا لأن مادة الكلام هي اللغة ، وأدبية ذوقية ثانيا لأن جوهر الكلام هو الجمال... ذلك لأن الدراسة

الأسلوبية إن بقيت تنشد العلمية في منهجها فلا تتخلص تماما من ربقة الاعتبارات الذوقية، وإنما لمجرد تهذيب هذه الاعتبارات وللتحكم بعض الشيء في مستعصياتها »، ويؤكـد على الجمع بين الجانبين العلمي والذوقي في بحثـه « في منهجية الدراسة الأسلوبيـة » ، فقد قسمه قسمين قسم نظري أكد فيه على العلاقة بين الانطباع والإحصاء ، وقسم تطبيقي درس فيه نموذجا لجملة وردت في كتاب "البخلاء" للجاحظ.

كما أنـه اعتمـد المنهـج الأسلوبي الإحصائي في كتابـه "خصائـص الأسلـوب في الشوقيات " متحريا الموضوعية والعلميـة ، لأن الأعمال التي تناولت شعر أحمد شوقي لم تكـن كذلك ، فهي « في الجملـة أعمال انطباعيـة لا تكاد تقترب من درجـة العلميـة ، أو تسلك سبل الموضوعيـة » ، وينطلق في منهجه من المقدمة فيبدأ بإحصاء ما خلفه شوقي من أشعار ليبين مكانته بين الشعراء العرب ، يقول: « فقد عرف الناس من شعر شوقي عدا مسرحياته الشعرية ديوان الشوقيات في أربعة أجزاء ، ويضم في طبعاته الأخيرة 11320 بيت ، حتى كانت سنتا 1961–1962 حين نشر محمد صيري " الشوقيات المجهولة " في جزأين ضمنها ما يقرب من 4700 بيت من الشعر، وهو مع ذلك لم ينشر كل ما اهتدى إليه من شعر شوقي... فإذا جمعنا تحصلنا على ما يقرب 17500 بيت معروف من شعر شوقي ، وهو عندنا الرقم القياسي الذي أمكن لشاعر عربي أن يصل إليه شعره ، إذ هو يتجاوز المقدر من مجموع أبيات ابن الرومي (من 16000 إلى 17000) والذي اتخذ مثالا في الخصب في الشعر العربي ».

كما ذهب العديد من النقاد العرب إلى اعتماد المنهج الأسلوبي الإحصائي في تحليل النصوص الأدبية ، فقد نهج محمد العيد في بحثه "سمات أسلوبية في شعر صلاح عبد الصبور" هذا المنهج وفق خطوتين أساسيتين هما: الوصف اللغوي المجرد للمثيرات اللغوية ذات القيمة الأسلوبية أولا، ثم وصف تأثيراتها الدلالية والجمالية ثانيا، كما اعتمد سعد مصلوح التحليل الإحصائي للنصوص في كتابه " الأسلوب "، مبينا أن النص الأدبي عند

مؤلف بعينه أو في جنس بعينه يمتاز باستخدام سمات لغوية معينة ، ويشترط صلاح فضل في الدراسة الأسلوبية الإحصائية اقتران الإحصاء بتحليل موضوعي للظواهر الأسلوبية وتحديد أبعادها الوظيفية والجمالية والدلالية في الخطاب الأدبي.

فالأسلوبية الإحصائيــة تهدف إلى إحصاء السمات الأسلوبية البارزة في النص الأدبي " المثيرات "، وذلك بحساب نسب تكرارها وبيان أثرها الجمالي في النص الأدبي أي استخلاص الأبعاد الجمالية في النص بطريقة علمية موضوعية.

4-الأسلوبية النفسيــّة

أطلق عليها اسم " الأسلوبية الأدبية " أو " أسلوبية الكاتب " ، ممثلها ليوسبتزر Leo Spitzer ، وهي « اتجاه منهجي في تحليل الخطاب ، وتعنى بمضمون الرسالة ونسيجها اللغوي، مع مراعاتها لمكونات الحدث الأدبي الذي هو نتيجة لإنجاز الإنسان والكلام والفن، وهذا الاتجاه الأسلوبي تجاوز- في أغلب الأحيان - البحث في أوجــه التراكيـب ووظيفتها في نظام اللغة إلى العلل والأسباب المتعلقة بالخطاب الأدبي ، ويعود سبب ذلك في اعتقاد أصحاب هذا الاتجاه بذاتية الأسلوب وفرديتــه ، ولذلك فهو يدرس العلاقة بين وسائل التعبير والفرد ، دون إغفال علاقة هذه الوسائل التعبيرية بالجماعة التي تستعمل اللغة المنتج فيها الخطاب الأدبي المدروس».

فمجال دراسة الأسلوبية النفسية هو علاقة التعبير بالفرد وبالجماعة، وتحديد بواعث اللغـة وأسبابها ، إذ دعا ليو سبيتزر إلى دراسة الأسلوب الفردي لكاتب من الكتاب أو أسلوب أمة مؤكدا أن كل سمة أسلوبية هي عبارة عن تفريغ أسلوبي فردي ، كذلك تعنى بدراسة الخطاب الأدبي ليس من ناحية النظام اللغوي فقط بل من الناحية النفسية للأديب الذي أنتجه.

أسس ليو سبيتزر أسلوبيته متأثرا بآراء كارل فوسلر Karl Vossler وبرغسون Henri Bergson ، معتبرا أن العناصر النفسية تظهر انعكاساتها في عمل الأديب ، كما كان للدراسات اللغويــة التي ظهرت في أواخــر القرن التاسع عشر في أوروبا إسهام كبيــر في هذا الاتجاه الأسلوبي ، كما أن أعمال كروتشيه Benedetto Croce ذات النزوع المثالي ، خاصة كتابه "علم الجمال" الذي جعل فيه الإنسان المركز الذي يستقطب الدراسات الجماليــة ، من العوامل التي ساهمت في ظهور الأسلوبية النفسيــة.

وقد انطلق ليو سبيتزر من مرتكزات تتمثل فيما يلي :

1-نقطة الانطلاق في البحث الأسلوبي هي العمـل الأدبي نفســه باعتباره نصا لغويا قائما بذاتــه .

2-معالجة النص الأدبي تكشف عن ظروف صاحبــه ، لذلك فإن البحث الأسلوبي هو بمثابة جسر بين علم اللغة وتاريخ الأدب.

3-الخصيصــة الأسلوبيــة هي انزياح شخصي ، أي طريقة خاصة في الكلام تنزاح عن الكلام العادي .

4-اللغــة تعكس شخصيــة الكاتــب ، ولكنها كغيرها من وسائــل التعبيــر تخضع لهذه الشخصيــة .

5-مبدأ العمل الأدبي هو فكر صاحبــه ، وهو عنصر التماسك الداخلي فيه.

6- لا سبيل إلى بلوغ حقيقة العمل الأدبي دون التعاطف مع صاحبــه ، وأن الأسلوبية في اصطناعها الحدس وعملها التحليلي تصبح (نقدا تعاطفيا) لا غنى عنه.

درس سبيتزر وقائع الكلام وحلل الانزياح الفردي الذي ينم عن شخصيــة المبدع ، وأولى عنايـــة خاصــة بدراســة الصيغ المعبـرة التي أوردها المبدعون في لغتهم الخاصــة ، ودعا إلى الاستعانة بعلم الدلالة التاريخي في دراسة الأسلوب الأدبي لأنه يتيح للباحث فهم شخصية الكاتب ويتيـح له أيضا التعمق في الكلمات نفسها في حقبة تاريخية معينـــة ،

فالكلمــة تحمل في عمقها شخصيــة الكاتـب وبالتالي حضارتـه وثقافتــه ، إذ أنّ الأسلوب الفردي يتفرع من ماهيــة جماعيـة ، وتتبع التطور التاريخي لكلمة يسهم في إنارة بعض البؤر المظلمة في النص.

تأثر ليو سبيتزر في تأسيـس أسلوبيتــه بفقـه اللغـة الذي بدأ منه ، إذ نشا على يد بعض العلماء الألمان الذين تفرغوا لدراسة اللغات الأوروبية المنحدرة من أصل لا تيني ، لكنه لم يقتنع بما قاموا به من دراسات فأستاذه لوبكة Lübke تناول اللغة الفرنسيــة في ما قبل تاريخها ولم يعالجها في تاريخها الحي المعاصــر، كما لم يقتنع بدراســة التحولات الصوتية والقوانيــن الآلية التي شغلت الصدارة في بحوث علماء اللغة واستفاد من أراء هوغو شوشارت Hugo Schuchardt فأخذ بفكرة الإبداع اليومي الدؤوب ، واعتنى بالتحول اللفظي المعبر عن مقاصد الشخص المتكلم دون إنكار وجود القوانين الذاتية في اللغة إذ يسعى إلى إدراك الذات الناطقة (فردا كان أم جماعة).

وفي هذا المجال – الأسلوبية النفسية – درس باشلار Gaston Bachelard موضوعات التكوين الأدبي استنادا إلى نفسيــة الكاتب التي تظل في نظره وراء كتاباتــه ، وميز رولان بارت Roland Barthes الأسلوب عن اللغــة فهو مرتبط بالمزاج ، واستعان شارل مورون Charles Mauron بالتحليل النفسي ، وتوصل إلى أن شخصية الكاتب تتجلى عبر مختلف الصور والتراكيب ، ودرس هنري موریر Henry Maurer النماذج الأساسية للأساليب من زاوية نفسيــة ، وهذه الدراسات تقوم على فكرة واحدة هي أن الأسلوب هو الإنسان ، لذلك سميت أيضا بـ" أسلوبيــة الكاتب".

اعتُبرت الأسلوبية النفسية تيارا حاسما في « تأسيس أسلوبية أدبية تتخذ من النص الراقي موضوعها، وتنفذ من بنيته اللغوية وملامحه الأسلوبية إلى باطن صاحبــه ومجامع روحـــه ، وهي لهذا تعتبر منعرجا حادا بالقياس إلى مرحلة البدايات مع علم الأسلوب شارل بالي »، ولكن رغم هذا لم تسلم من الانتقادات ، فقد أخذ عليها ريفاتير إغراقها في الذاتيــة

والانطباعيــة وابتعادها عن الموضوعيــة ، وأخذ رينيه ويلك René Wellek على سبيتزر أنه جعل اللغة آخر مرحلة في التحليل حيث يبدأ بالتحليل السيكولوجي ثم يعود إلى اللغة ليؤكد ما توصل إليه ، وذهب ستاروبنسكي Jean Starobinski إلى أن منهج ليوسبيتزر متعدد الأبعاد إلا أنه لا يصلح للتطبيق على كل النصوص، إذ يجد تطبيقه الأمثل في النصوص ذات الطابع سير ذاتي.

وهو ما ذهب إليه صلاح فضل فهذا المنهج يصلح لأدباء معينين ولا يصلح لغيرهم ، ثم إنه يغفل العناصر الجمالية في الأسلوب ، لأن الهدف الأساسي من الدراسة ينبغي أن يكون هو النص لا المؤلف ، ويجب أن يتركز البحث في التأثيرات الأدبية والوسائل الإيحائية التعبيرية التي استعان بها المؤلف.